فلقد وجدت بركة هذا الدعاء، وعلمت أنه لا يمكنني الانقطاع عن الخلق، وأني مراد بهم، لقوله: «وبهاك بين خلقه».

وكنت أنا لآمره من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صح نقله عنه، حتى جرت بيني وبين بعض أصحابه مقاولة، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل.

ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظاماً وظاهر الشرع يأباها، فقال ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ: تدري ما قاله لي الشيخ يوم تخاصمنا؟ قلت: لا.

قال: دخلت عليه فأول ما قال لي: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك، فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا، ولعمري لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاماً فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم، من الذين كان ينقله عنه من يقصده بالأذى.

وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل دعني أذهب أرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارب بها فقال:

الأول إسلام.

والثاني: إيمان.

والثالث: إحسان.

وإن شئت قلت: الأول عبادة.

والثاني: عبودية.

والثالث عبودة.

وإن شئت قلت: الأول شريعة.

والثاني حقيقة.

والثالث: تحقق، أو نحو هذا.

فما زال يقول: «وإن شئت قلت» «وإن شئت قلت» إلى أن بهر عقلي وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلّهي، ومدد رباني، فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة، إلى المنزل فلم أجد في شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي، ووجدت معنىً غريباً لا أدري ما هو، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه فاستؤذن علي فلما دخلت عليه، قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له يا سيدي أنا والله أحبك.

فقال أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال رضي الله عنه:

أحوال العبد أربعة لا خامس لها:
النعمة والبلية والطاعة والمعصية.
فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر.
وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر.
وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك.
وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.

فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته ثم سألني بعد ذلك بمدة كيف حالك؟

فقلت أفتش على الهم فلا أجده، فقال رضي الله عنه:

ليلي بوجهك مقمر وظلامه في الناس سار
والناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار

الزم: فوالله لئن لزمت لتكونن مفتياً في المذهبين، يريد.

مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر.

ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن.